

اللغة والبحث الأنثروبولوجي

أ. حساين عويشة

جامعة تلمسان

ملخص:

تعد اللغة ظاهرة اجتماعية، نشأت وترعرعت وتطورت داخل المجتمعات البشرية، كما أنها في تطور دائم ومستمر، يتنازعها في تطورها هذا عاملان متناقضان، وهذان العاملان هما عامل المحافظة من ناحية، وعامل التطور من ناحية أخرى، كما برز التقليد الأنثروبولوجي الذي أظهر في دراسته العلاقة بين اللغة والثقافة، وكذلك اللغة والمجتمع، وساهم في إمكانات لم تقف عند حدود الأغراض النظرية فحسب بل تعدّاها إلى محاولات كشف طبيعة العلاقات الثقافية اللغوية والاجتماعية اللغوية فقد كان الارتباط الوثيق بين اللغة والمجتمع والثقافة وراء الاهتمام الذي أبداه الأنثروبولوجيون لدراسة لغات المجتمعات، فجاءت هذه الدراسة لتبين لنا أن اللغة هي الباب الذي يلج منه الأنثروبولوجي إلى داخل المجتمع الذي يدرسه وهذا الارتباط أدى إلى الاستفادة من معطيات علم اللغة في الدراسات الأنثروبولوجية.

Résumé :

La langue est un phénomène social qui a grandi et s'est développée au sein des sociétés humaines. Elle est également en constante évolution, dans ce développement existe deux facteurs Contradictoires qui sont, des facteurs conservateurs d'une part, et de progrès d'autre part.

L'étude de l'anthropologie a prouvé la relation entre la langue et la culture, ainsi que la langue et la société, et ne se sont pas arrêtés aux frontières des fins théoriques, mais il y a eu plusieurs tentatives pour découvrir la nature des relations entre la langue, la société et la culture

Ce lien très fort était derrière l'intérêt manifesté par les anthropologues pour étudier les langues des communautés, cette étude est venue pour nous montrer que la langue est la porte par ou pénètre l'anthropologue au sein de la communauté, et que les données linguistiques aide beaucoup dans les études anthropologiques.

Abstract:

Language is a social phenomenon that has grown and has developed in human societies, it is constantly evolving. In this development there are two Contradictory factors, which are preservatives factors on the one hand, and progress of other part.

The study of anthropology has shown the relationship between language and culture, and language and society and did not stop at theoretical end borders. But there have been several attempts to find out the nature of relations between language, society and culture

This strong link was behind the anthropologist's interests to study the languages of the communities. The study came to show us that language is the input by which the anthropologist penetrates within the community, and that the linguistic data help a lot in the anthropological studies.

ظهرت اللغة بظهور الإنسان، أو بنشأة المجتمع الإنساني، وبالدمغ الإنساني وغوه، وبأطوار الحياة الاجتماعية التي مر بها الإنسان وبالاحتاجات التي يحتمل أن تكون قد ألبأت إلى اصطناع هذا النظام وهو "اللغة"¹.

يبدو أن كل ما يحدث على الفكر البشري، أو السلوك الأخلاقي، أو المجتمع الإنساني في جميع أحواله السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية ظاهراً بينا في لغة ذلك المجتمع، بل أننا يمكن أن نتصور حالة ذلك المجتمع الغابر من خلال البقايا اللغوية التي وصلت إلينا، فنعلم ما خلفه لنا من قيم حضارية وفكرية.

اللغة عبارة عن مظهر متفاوت من النشاط الإنساني فهي تراث تاريخي لكل مجتمع، ونتيجة منطقية لنظام اجتماعي نشأ وترعرع فيه. وهو متفاوت كما متفاوت كل جهد إبداعي للإنسان بين أمة وأمة، كالعادات والتقاليد والمعتقدات والفنون².

1- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د.محمود السعران، د.ت، د ط، لبنان بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص 53.

2- ينظر اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة د حسن ضاضا، الطبعة الثانية، سوريا دمشق، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، 1990، ص 32.

وتعد اللغة ظاهرة اجتماعية، نشأت وترعرعت وتطورت داخل المجتمعات البشرية. ومن السهل أن نلتبس البعد الاجتماعي في اللغة، وخير دليل على ذلك ما جاء في النص القرآني في عرض قصة خلق آدم عليه السلام، وتلقينه الأسماء من عند الخالق عز وجل؛ إذ يقول عز من قائل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ¹.

فاللغة هي عبارة عن نظام مشترك يتبعه أفراد المجتمع، إذ يتخذونها وسيلة للتواصل فيما بينهم وللتعبير عما يجول في خواطرهم. كما أنها ليست من صنع فرد معين بل هي من صنع المجتمع كله. ولهذا تعتبر اللغة كسائر النظم الاجتماعية يتلقاها الفرد من مجتمعه، فهي ظاهرة اجتماعية جبرية، كما وردت في التعريف الذي اقترحه دوركايم Durkheim إذ اعتبر هذا الأخير اللغة ظاهرة اجتماعية، تنتقل من جيل إلى جيل آخر، فهي إذا كانت فردية بمعنى من المعاني، فهي بمعنى آخر خارج الفرد لأنها وجدت قبل ولادته، وتظل موجودة بعد مماته وهو يكتسبها بحكم ولادته في مجتمع معين. كما أنها إلزامية أي لا تخضع لمنطق الأفراد وإنما تخضع لمنطق العقل الجماعي، فهي بمثابة سلطة لها هيبتها ولها هيمنتها ولا بد للفرد من طاعتها واحترامها وأن يسلم بما يسلم به الجميع².

1- سورة البقرة (2)، الآيات : 31-33.

2- ينظر - RAFAEL farcobenthien, Antoine Meillet ; Comment les mots changent de sens ; édition Dodo press, atelier du centre de recherches historique, Revue électronique du CRH, mise en ligne 21 avril 2011, consulté 14 mars 2013 , p 41.

يضعنا هذا كله في تساؤلات كثيرة منها: ما هي العوامل التي تجعل اللغة ظاهرة اجتماعية؟ وكيف تتغير اللغة وتتطور؟ ولماذا تشيخ وتموت؟ كل هذه الأسئلة تعيننا على معرفة الإنسان ذاته.

اللغة ظاهرة اجتماعية متغيرة

تعد اللغة المستودع الجماعي الذي يستمد منه الأفراد صور نطقهم الفعلية، كما أنها الشبكة العامة التي تغذي مختلف مصادر الاستعمال الفردي. فهي لا تسير في تنقلها على ألسنة الناس عشوائيا، بل هي مقننة بنظام اتفق عليه أفراد المجتمع. فاللغة مثلها مثل الكائن الحي تتطور وتتغير، كما يعترىها النمو تارة والاضمحلال تارة أخرى، فهي تميل بطبيعتها إلى التغير، وفي ذلك قال ماريو باي Mario pei: "إن الاتجاه الطبيعي للغة هو اتجاه يبعتها عن المركز، فهي تميل إلى التغير، سواء خلال الزمن أو عبر المكان، إلى الحد الذي لا تفوق تياره العوامل الجاذبة نحو المركز وهذه الخاصية العامة للغة تشكل الأساس في كل تغيير لغوي"¹.

ومادام الفكر الإنساني نفسه في تطور مستمر ينتقل من البسيط إلى المركب، ويخطو دائما في درجات النمو والاتساع والتعقيد، فإن اللغة التي هي آله لا تستطيع أن تقف حيث هي وتبقى مع ذلك على قيد الحياة، بل يجب أن تتطور في عدة اتجاهات². ولقد وضع أولمان uilman ذلك في قوله "اللغة ليست جامدة أو ساكنة، بحال من الأحوال، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئا في بعض الأحيان،

1- أسس علم اللغة ماريوباي، ترجمة أحمد مختار عمر، الطبعة 8، عالم الكتب، عمان، الأردن، 1998م، ص71.

2- ينظر اللسان والإنسان حسن ضاحا، ص 107.

فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور"¹.

ولما كانت اللغة تابعة لأحوال الاجتماع في البسط والقبض وما يتقلب عليه ويحدث فيه بحيث لا تخرج عن أن تكون مرآة تظهره كما هو في نفسه مهما تنوعت أشكاله واختلفت أزياءه، وهذا التغير هو حقيقة الاصطلاح والمواضعة؛ فالإنسان لما ارتجل المقاطع الثلاثية دل بها على معان محصورة في حدود نظامه الاجتماعي، ثم ضرب في الكلام بمقدار ما يجد من أمره وما يتنبه إليه من حقائق الموجودات التي تكاشفه بنفسها، وما يقتضيه التبسيط في مناحي المجتمعات شيئاً فشيئاً؛ وذلك عن طريق تكرار الألفاظ وتنويعها للمعاني المختلفة. وهذا النحو لا يزال باقياً في اللغة الأكادية فإنهم يدلون بلفظة واحدة على خمسة عشر معنى وهي لفظة (ga) أو (ca) يدلون على الفم، الوجه، العين، الأذن، الشكل، القدم، الرجل، النظر، التكلم... الخ². والذي يقصده الباحثون بالتغير اللغوي هو انتقال ظاهرة لغوية من حالة إلى حالة أخرى أو حلول ظاهرة لغوية محل ظاهرة لغوية أخرى في مرحلة من مراحل تاريخ اللغة المعينة³.

ارتبط التغير اللغوي بتطور المجتمع الإنساني؛ ذلك لأن اللغة في تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية والحضارية والسياسية، وكل ما في المجتمع عبر الأجيال⁴. فهي ظاهرة اجتماعية لا بد من خضوعها لعوامل التطور في المجتمع من حيث عقلية

1- ينظر دور الكلمة في اللغة ستيفين أولمان، ترجمة كمال بشر، القاهرة الطبعة 10، مكتبة الشباب سنة 1986م، ص156.

2- تاريخ آداب العرب د. مصطفى صادق الرافعي، الطبعة 5، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2005م الجزء1، ص 54.

3- مدخل إلى اللغة عبد العزيز محمد حسن، دط، دار الفكر، القاهرة، 1988م، ص15

4- علم اللغة العام د. عبد صبور شاهين، الطبعة 6، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، 1993م، ص 141.

وثقافته ووسائل إنتاجه المختلفة¹، مستمدة كيانها من عاداته وتقاليده وسلوك أفراده، فاللغة تتطور وترقى برفي هذا المجتمع وتنحط بانحطاطه².

وتبعاً لهذا التطور تتغير دلالات الألفاظ من زمن إلى آخر بحسب الاستعمال المجازي لها، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية، وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هي التي تختلف من مدة زمنية إلى أخرى، ومن مستوى إلى آخر من مستويات اللغة، فلو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين متباعدتين لتكشف لنا الأمر عن اختلافات عميقة كثيرة، من شأنها أن تعوق فهم المرحلة السابقة وإدراكها إدراكاً تاماً. وأن اللغة تنتقل من جيل إلى آخر على فترات تتخللها تغيرات وانحرافات دائمة، وهذه الحقيقة ذاتها تؤدي إلى المرونة في الاستعمال، وإلى عدم ثبات الظواهر اللغوية³.

ولهذا اتفق معظم اللغويين على إعطاء بعض الأسباب التي تؤدي إلى هذه التغيرات. فقسموا هذه الأسباب إلى داخلية وخارجية.

أما الأسباب الخارجية كتأثير لغة في أخرى، كذلك الامتزاج بين الثقافات واحتكاك الحضارات، وقد يكون أحياناً بسبب هجرات سكانية أو حروب. وأما الأسباب الداخلية فمثلاً استعارة ألفاظ من لغات أخرى مثل راديو، radio فيلم film،... وغيرها. ومن بين الأسباب كذلك ميل النفوس البشرية إلى بذل الجهد الأقل في نطق بعض الأصوات ومن خلال هذه الظاهرة يمكن أن نفهم حين نرى بعض الأصوات قد حذفت أو أدمغت، وعلى سبيل المثال في اللغة العربية قلب الهمزة إلى صائت كما في الكلمات التالية بئر، فأر، كأس فأصبحت بير، فار، كاس

1- لحن العامة والتطور اللغوي د. رمضان عبد التواب، الطبعة 2، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2000م، ص5.

2- المرجع نفسه، ص 119.

3- دور الكلمة في اللغة ستيفين أولمان، ص 170-171.

...وغيرها. كمّا يعد القياس من أهم الأسباب الداخلية في التغير فقد يطرأ على كلمة واحدة تغيير فيصير هذا شائعاً في كلمات أخرى، وخير مثال على ذلك لغة الأطفال، فالطفل يميل إلى القياس والسير على وتيرة واحدة حيال جميع الكلمات فتراه مثلاً يتبع طريقة واحدة في التأنيث فيقول خروف خروفة، حصان حصانة، كبير كبيرة...¹.

ويقول صبري إبراهيم السيد في هذا التطور والتغير الحيوي للغة: "إن التغير اللغوي يكون استجابة لجوانب كثيرة من السلوك الإنساني، وقد ينتج من الاتصال الثقافي والتمدن والتصنيع، وقد يرتبط جزئياً بمتغيرات اجتماعية معينة. وذلك أن اللغة لها ارتباطها القوي بالمجتمع، فكل تغير وتطور يحدث يتردد صدها في أداة التعبير. وكلما تقدمت الحياة فإن اللغة يجب أن تتحرك لتستوعب كل مظاهر الحياة الجديدة، ويكون أمامها حينئذ سبيلان إما المحافظة على الألفاظ الموروثة مع اكتسابها دلالة جديدة. وإما أن تستعير ألفاظ اللغات الأجنبية التي تطلق على المبتكرات الجديدة كالراديو، السوبرماركت.. الخ."²

كما رأى اللغوي الفرنسي أرسين دارمستير Arsène Darmester "أن أية لغة كانت وفي أية فترة كانت من وجودها، في تطور دائم مستمر، يتنازعها في تطورها هذا عاملان متناقضان تجاهد اللغة في الاحتفاظ بالتوازن بينهما، وبقدر احتفاظها بهذا التوازن يكتب لها طول العمر بين الناطقين بها، وهذان العاملان هما عامل المحافظة من ناحية، وعامل التطور من ناحية أخرى"³.

أما فيما يخص عامل المحافظة، فإن اللغة بعد أن صارت الآلة الأساسية للتفاهم وتبادل الأفكار بين أفراد المجتمع الواحد، تتحول في ذلك المجتمع إلى أداة من أدوات

1- علم اللغة د. علي عبد الواحد وافي، الطبعة 9، شركة نخضة مصر للطباعة والنشر، 2004م، ص 145.

2- علم اللغة الاجتماعي السيد صبري إبراهيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995م، ص 199.

3- اللسان والإنسان حسن ضاضا، ص 93.

الترف، فهي تخرج عن نطاق الاستجابة إلى مطالب ضرورية، لتصير فنا يقصد لذاته. وهذا ما رآه حسن ظاظا إذ قال "فاللغة، مع تقدم الحضارة وتبلور التقاليد وتكون الذوق الجمالي وحرص الآباء على أن يكون أبنائهم صورة منهم، وصورة محسنة منقحة منقاة من الشوائب، كل ذلك أوجد لدى البشر إحساسا جماليا بجنا باللغة، إذ لم يعد الإنسان يكتفي منها بمجرد الفهم والإفهام، بل راح يتلذذ بالجرس الحسن والصيغة الجميلة، والتعبير المحكم، والصور البيانية الرائعة، وأخذ يتذوق ذلك، ويجذب إليه انتباه أبنائه ومن يهيمه أمرهم من ذويه، كما أقام الأسواق للشعر والأدب والخطابة، وأعطى المتفنين في استعمال اللغة فرصا نادرة في قيادة المجتمع وحيارة الشرف والمجد والثروة"¹.

كما تعد نزول الكتب المقدسة ببعض اللغات سببا في محافظة وإجلال هذه اللغات من قبل المؤمنين بما لَمَّا لها من هبة وإجلال في صدورهم. فأصبحت هذه النصوص نماذج لغوية ومثلا عاليا، وحواجز في وجه التطور اللغوي الطبيعي في كثير من الأحيان². فعامل المحافظة، يعد حاجزا لظاهرة التطور اللغوي، لأنه يرى أن اللغة تراث قومي، وخاصة إذا كانت النصوص الدينية بنفس تلك اللغة، فيصير أفراد ذلك المجتمع مسئولون عن تلك اللغة بالمحافظة عليها كما كان ذلك في عهد السلف.

أمَّا عامل التطور فهو عكس عامل المحافظة، فهو دائم التطور، مستمر في النمو، يتقدم ولا يعرف الوقوف، وهذا كله راجع لعدة أسباب من بينها امتزاج الثقافات، واحتكاك الحضارات، وهجرات سكانية، وحروب، وتعاقب الأزمان والأجيال، مع وجود الفارق في دقة التلقي عن طريق السمع، وعن طريق المحاكاة بين

1- المرجع السابق، ص 94.

2- ينظر المرجع نفسه، ص 94.

الأبناء وآبائهم، كل ذلك يحدث عاهات عميقة في شكل اللغة بل يظهر فيها لهجات متنوعة وتنفصل عن اللغة الأم¹.

فالتطور اللغوي يلحق بجميع الأنظمة اللغوية، فقد يصيب النظام الصوتي كاملاً أو جزءاً منه، وقد يصيب النظام الصرفي والنحوي وقد يقع في دلالة الألفاظ وفي المفردات.

ولهذا أصبحت دراسة اللغة من الأمور الشائعة والهامة في معظم الجامعات والمعاهد، ولهذا اهتم العلماء اهتماماً كبيراً بدراساتها والبحث عن مختلف أدوارها في حياة البشر. ونظراً لأهمية هذه الدراسة لم تقتصر البحوث عند اللغويين فحسب، بل شملت محاولات عديدة قدمها الفلاسفة والمناطق والنقاد ورجال الدين والعاملون في مختلف التخصصات العلمية، ومنهم من أثاروا تساؤلات تتعلق بطبيعة اللغة ومكوناتها ونشئها وتعدد وظائفها وعلاقتها بالفكر والإنسان والمجتمع وكذلك الثقافة، وضمن هذه التخصصات برز كذلك التقليد الأنثروبولوجي الذي أظهر في دراسته العلاقة بين اللغة والثقافة، وكذلك اللغة والمجتمع، وساهم في إمكانات لم تقف عند حدود الأغراض النظرية فحسب بل تعدّاها إلى محاولات كشف طبيعة العلاقات الثقافية اللغوية والاجتماعية اللغوية².

ومن أشهر من ساهم في كشف العلاقة بين الأنثروبولوجيا واللغة، الأنثروبولوجي المالينوفسكي malinowski الذي بيّن أهمية الأنثروبولوجيا في توطيد دعائم علم اللغة وتوسيع آفاقه، فقد كتب حول أهمية البحوث اللغوية واللسانية للفهم

1- ينظر اللسان والإنسان، حسن ضاضا، ص95.

2- ينظر Louis Jacque Dorais، « Anthropologie du langage»، document produit en version numérique par Jean-marie Tremblay، professeur en sociologie au Cégep de Chicoutimi. Dans le cadre de la collection « les classiques des sciences sociales », 2005، édition du renouveau pédagogique، Chicoutimi، Québec Canada، p7

الأنثروبولوجي الصحيح لكل أنواع المجتمعات البشرية؛ فرأى أن عالم اللغة عليه بالضرورة أن يهتم بالمشكلات المتعددة للأنثروبولوجيا كعلم يمتد في مجال اللغة"¹.

صارت دراسة اللغة أكثر تطوراً عبر البحث الأنثروبولوجي، سواء على المستوى الوصفي الإثنوغرافي أو على المستوى الإثنولوجي المقارن. ولقد بيّن فرانز بواس F.Boas في بحوثه الأنثروبولوجية على أهمية هذه العلاقة فقد كان في بحوثه الأولى لا يؤمن بإمكانية استعمال البحوث اللغوية لإعادة تشكيل العلاقة القائمة بين اللغة والجنس البشري، إلا أنه بعد دراسة عميقة رأى أهمية دراسة اللغة في البحث الأنثروبولوجي فحاول أن ينقل لتلاميذه حب البحث بالتفصيل في اللسانيات الوصفية وحاول كذلك إقناعهم بأهمية اللغة باعتبارها أداة مهمة أولاً في البحث العلمي الميداني، وثانياً في دراسة ثقافات وتقاليد شعوب العالم قائلاً "إن معرفة الأنثولوجيا، لا يمكن أن تتم بغير معرفة علمية باللغة، وفهم اللغة لا يستطيع تحقيقه بمعزل عن الأنثولوجيا، اعتباراً من أن المفاهيم الأساسية التي توضحها دراسة اللغات الإنسانية لا تتمايز في النوع عن الظواهر الأنثولوجية. وأكثر من ذلك، فإن الخصائص المرتبطة باللغات تنعكس بوضوح كبير في آراء وتقاليد شعوب العالم"².

لقد أثمر التعاون بين علم اللغة والأنثروبولوجيا الكثير من النتائج من بينها فهم القضايا اللغوية والثقافية؛ مثل الاهتمام بالتراث اللغوي خاصة لغات المجتمعات البدائية. كما أن هذا التعاون بين هذين العلمين ساعد في زيادة فهم ومعرفة طبيعة اللغة المدروسة من خلال إظهارها الثقافي، وكلها أمور تحدث عنها اللغوي الفرنسي اميل بنفينيست E.Beneveniste فرأى أن جميع العلوم الإنسانية في، تطور كبير

1- بنظر: R. Koenker, linguistic anthropology, p8900 Copyright # 2001 Elsevier: article—

Science Ltd. All rights reserved.

International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences, pdf

2- Ibid, p8900

بفضل الأنثروبولوجيا من الناحية العلمية، والتي استهدفت أساسا صياغة جديدة للفكر الإنساني، إذ أن كل الأنظمة اللسانية أم غيرها (الرسم، الفن المعماري، الطقوس الدينية) لا يمكن تأويلها إلا باللغة وحدها. فاللغة هي أداة الوصف والاكتشاف.¹

إن الدراسة المعجمية المضنية والمفصلة التي قام بها بنفينيست Beneveniste حول اللغة الهندو-أوروبية قد مكنت الباحثون في وصف النظام الكامل للعلاقات الشخصية ضمن العائلة والجماعة والعشيرة عند الهند-أوروبيين، حيث حدد نظام صلة القرابة، وكذلك الالتزامات القانونية الموجودة في تبادل البضائع والخدمات وحددت أيضا الحقوق والواجبات المتعلقة بالحاكم بالإضافة إلى تميز الطرق المختلفة لتقديم الاحترام للآلهة وتقديم معلومات قيمة حول تربية الحيوانات الأليفة.² أخذت العلاقة بين دراسة اللغة والأنثروبولوجيا عدة مفاهيم واتجاهات، فمنها الاتجاه البريطاني والأمريكي والفرنسي والعربي.

ففي المدرسة البريطانية كان اعتناء الأنثروبولوجيين باللغة يّينا، وذلك من أجل فهم ثقافات مستعمراتها، وهذا ما نلتمسه في كتابات "ادوارد تايلور Edward Taylor" في القرن التاسع عشر.³ يعتبر تايلور Taylor من أهم الرواد في الدراسات

1- مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة رضوان ضاحا، مراجعة د. المنصف الشنوفي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، صدرت السلسلة في يناير 1978م بإشراف أحمد مشاري العدواني، ص 168.

2- ينظر إيدجرسبولوم، عنوان المقالة: اللغة والسلوك اللغويات النثروبولوجية، ص 666، العنوان الإلكتروني: www.mohamedrabeea.com/books/book1_402.pdf موقع أ.د. محمد سعيد ربيع الغامدي،

أ. العلوم اللغوية قسم اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، بحوث لغوية قصيرة

3- قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان د فهم حسين، عالم المعرفة، د ط، الكويت، 1986م، ص

الأنثروبولوجية الذين عملوا على تخليصها من الفكر النظري الفلسفي حيث اعتبر الثقافة موضوع الأنثروبولوجيا، وكانت دراسته لها بهدف البحث عن أصول عناصر الثقافة ونشأتها وتطورها وانتقالها من مكان لآخر، كما اهتم بتحليل الرواسب الثقافية التي لا تزال تمارسها بعض المجتمعات وفكرة التشابه الواضح بين العناصر أو الملامح الثقافية لدى كثير من الشعوب، كما كان يولي اهتماما كبيرا للغة ورموزها وتراكيبها في مختلف الثقافات، وقد بلغ اهتمامه بهذا الجانب أن خصص لدراسته فصولا طويلة في ثلاثة من الكتب الأربعة التي ألفها وهي "الثقافة البدائية culture primitive و"أنثروبولوجيا anthropology و"بحوث في التاريخ المبكر للجنس البشري Research in early history of mankind".¹

كما كانت دراسات تايلور الأولى تعتمد على دراسة الثقافات البدائية، إلا أن فهمه للأنثروبولوجيا قد تضمن الدعوة إلى دراسة كل أنواع الثقافات بدائية كانت أم متحضرة، فمن المهم أن نوضح أن الأنثروبولوجيا في بداية نشأتها قد قامت على فكر وأبحاث علماء ذوي تخصصات متباينة، الأمر الذي أعطى للأنثروبولوجيا مزيجا هاما من المنطلقات الفكرية المفيدة في إطار الدراسة الشمولية للإنسان.²

أما المدرسة الأمريكية فقد كانت دراسة اللغة مع الأنثروبولوجيا تحت تخصص واحد، إلى أن وجد الأنثروبولوجيون أنفسهم مضطرين إلى دراسة لغة بعض قبائل الهنود الحمر، والتي لم يكف نموذج عائلة اللغات الهندية - الأوروبية لشرحها، وذلك لكونها لغات لا تكسب أي تراث مكتوب، وهذا ما جعلهم يستعملون في دراساتهم وسائل وأدوات التحليل الإثنوغرافي، ومن أشهر من قام بهذا النوع من البحوث بواس Boas والذي نشر عمله في كتابه مختصر اللغات الهندية الأمريكية في الفترة

1- اللغة والثقافة دراسة أشروغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية د. كريم زكي حسام الدين، ص 39.

2- ينظر قصة الأنثروبولوجيا، د حسين فهم، ص 137.

الممتدة ما بين 1911-1922، كما يرجع له الفضل في طرح فكرة تعدد وتنوع الثقافات والتي أصبحت منذ ذلك الوقت من أهم المبادئ في الفكر الأنثروبولوجي¹. لقد اهتم بواس Boas في بحثه على دراسة الجوانب اللغوية والثقافية لعدد من القبائل، وانتهى إلى نتيجة أن هذه الجوانب تتكامل فيما بعضها. وأضحى من البديهي في هذه المدرسة أن يربط بين البحثين اللغوي والأنثروبولوجي، وهذا ما برز في بحوث تلاميذ بواس Boas وأشهرهم ساپير Sapir الذي يعدّه البعض مؤسس الأسس الأنثروبولوجية لدراسة اللغة².

أما المدرسة الفرنسية فقد ظهر فيها عدد غير قليل من الأنثروبولوجيين الفرنسيين ومن أبرز هؤلاء الأنثروبولوجيين ليفي ستروس Levi-Strauss، وبيير بورديو Pierre baudriot، ولوويدومون louis dumanant، وموريس غودلييه maurice gaudelier، فالدراسة الاثنوغرافية للفي ستروس في القارة الأمريكية، وبيير بورديو في الجزائر، ولوويدومون في الهند، وموريس غودلييه في ماليزيا وغينيا الجديدة، قد لعبت دورا هاما في إنضاج موضوع الأنثروبولوجيا ونظرياتها³.

في حين تعد بحوث ليفي ستروس Levi-Strauss في المدرسة الفرنسية من أول المحاولات في دراسة العلاقة بين اللغة والأنثروبولوجيا، فقد مكّنه العمل الحقلّي من إنتاج النصّ الإثنوغرافي، هذا النصّ الذي قام من خلاله بتصوير تلك الثقافات التي وقف على دراستها ومن ثمّ تكريس سلطته في مجال معرفة النظرية الأنثروبولوجية⁴. والذي يمكن أن نلاحظه أن المدارس الأنثروبولوجية الغربية تأسست على مبدأ واحد وهو اكتشاف مستعمرات جديدة تحت عنوان دراسات علمية أنثروبولوجية. في

1- ينظر، المرجع السابق، ص 163.

2- article, R. Koenker, linguistic anthropology, p8900 ينظر:

3- قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، عبد الله عبد الرحمن يتييم، كلود ليفي ستراوس الطبعة 1، إصدارات بيت القرآن، المنامة، البحرين، 1998م، ص 40.

4- ينظر قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، عبد الله عبد الرحمن يتييم، كلود ليفي ستراوس، ص 39.

حين تعد دراسة اللغة في علاقتها بالثقافة في المدرسة العربية من أقدم المحاولات بعد الفتوحات الإسلامية، واختلاط العرب بغيرهم، وفشوا اللحن إلى ألسنة العامة. فقد سبق العرب الأوروبيين في اكتشاف الثقافات الأخرى، ووصفها ومقارنتها وسبر غور العلوم الطبيعية والاجتماعية ومناهجها العقلية والتجريبية. فمن منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر كان العرب هم "عباقة الشرق"، كما يصفهم جورج سارتون، وكانت اللغة العربية هي لغة العلم البشري¹.

إن فحص التراث العربي الإسلامي ودراسته دراسة عميقة يسهل لنا إعادة تاريخ الأنثروبولوجيا عند العرب، أو على الأقل معرفة الأصول المعرفية والمنهجية لها، بحيث لا ترد جميعها إلى عصري النهضة أو التنوير الأوروبيين، بل قد نجد في هذا التراث الكثير من المفهومات والنظريات عن الجنس البشري، والحضارة الإنسانية، وأوجه الحياة اليومية ومشاكلها مما لا يزال يشغل بال الباحثين الأنثروبولوجيين المعاصرين².

ولنا في التراث العربي من الأفكار والمعلومات التي تساهم في إفادة البحث الأنثروبولوجي الحديث، فمثلا ما جاء في كتاب "ابن فضلان" الذي درس الأسلاف الوثنيين لسكان شمال غرب أوروبا الحاليين، وكذلك الرحالة "ابن بطوطة" الذي قدم روايات مفصلة عن أخلاق وعادات الشعوب التي كانت تعيش بين مراكش والصين، كما أظهرت البحوث الجادة في التراث العربي أن تحليل المواد الأنثروبولوجية أمرا مألوفا لهم، فقد حلل ابن خلدون في مقدمته البناء الاجتماعي لقبائل الصحراء والمدن فأدرك أن بين البيئة وطرق المعيشة الإنسانية وبين البناء الاجتماعي علاقة سببية، كما أنه تحدث عن

1- ينظر، قصة الأنثروبولوجيا د حسين فهم، ص 257.

2- ينظر، المرجع السابق، ص 259.

فشو اللحن وأثر البيئة الجغرافية في اللغة.¹ كما يجدر الإشارة إلى كتاب "البيروني" لما احتواه من مادة اثنوغرافية الموسوم بـ "تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، وصف فيه البيروني المجتمع الهندي من ناحية نظمته الدينية والاجتماعية، وأنماطه الثقافية، كما اهتم بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس، كما أنه درس اللغة الهندية وقارنها باللغة العربية. وقد قسم اللغة الهندية إلى كلام دارج مبتذل يستخدمه السوق، وإلى مضمون فصيح يتعلق بالتصارييف والاشتقاق، ودقائق النحو والبلاغة لا يرجع إليه إلا الفضلاء المهرة (أو من يسمون الآن بالخاصة).²

أما المدرسة اللغوية العربية الحديثة فقد وجدت بعض البحوث التي أخذت الدراسة الأنثروبولوجية كأداة رئيسية في المعالجة والتحليل كما هو الحال في كتابات عبده الراجحي، إذ بيّن أن علم اللغة شهد تطوراً سريعاً ومتلاحقاً، وجرت في نهره مياه كثيرة جديدة، وبخاصة عن علاقة "اللغة" بعلوم المجتمع، في الاجتماع والأنثروبولوجيا.³

كما انتقلت موجة البحث اللغوي هذه إلى الشرق على يد جماعة من الرواد الذين تلقوا مناهجه في أوروبا، ثم عادوا إلى الوطن العربي ليقدموا لنا ما تلقوه عن أساتذتهم، في صور مختلفة. وكان في مقدمة هؤلاء إبراهيم أنيس، الذي يعد أول من حاول تطبيق مناهج علم اللغة الحديث، وخرج لنا بجملة من الملاحظات النظرية، تدعمها الشواهد اللغوية، وبخاصة في كتابه "اللهجات العربية"، كما درس عدة ظواهر لغوية في كتابه "من أسرار اللغة"، وخصص كتاباً ثالثاً لدراسة "الأصوات اللغوية" وكتاباً رابعاً لدراسة "دلالة الألفاظ" وجاء من بعده جيل من العلماء والباحثين، فكانت لهم عدة محاولات في الدراسات المنهجية والتطبيقية ومن ذلك ما

1- ينظر قصة الأنثروبولوجيا، د حسين فهميم، ص 266.

2- المرجع السابق، ص 55.

3- ينظر، اللغة والمجتمع د عبده الراجحي، الطبعة 2، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 2004م، ص 5.

كتبه تمام حسان عن "مناهج البحث في اللغة" وما كتبه عبد الرحمن أيوب عن "التطور اللغوي"، وما كتبه محمود السعرا عن "علم اللغة" وعن "اللغة والمجتمع"، كما قدموا عدة ترجمات علمية دقيقة لبعض الأعمال الغربية، ومن ذلك ترجمة عبد الرحمن أيوب لكتاب جيسبرسن Gisppersen "اللغة بين الفرد والمجتمع" ومن ذلك أيضا ترجمة كمال بشر لكتاب أولمان ulman "دور الكلمة في اللغة".¹

وبعد دراستنا للمدارس الأربعة، الأمريكية، والإنجليزية، والفرنسية، وأخيرا العربية، يتبين لنا أن المدارس الثلاثة الأولى كانت ولا زالت لها أهداف استعمارية تحققها تحت راية العلم، بينما المدرسة العربية قديما وحديثا فأهدافها علمية غير أنها لازلت قليلة إذا قارناها بالبحوث الغربية.

1- ينظر، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث د عبد الصبور شاهين، دط، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، 1966م، ص6.